خاص لموقع المنشاوي للدراسات والبحوث www.minshawi.com

جامعة دمشق –كلية التربية
دبلوم الدراسات العليا
قسم التخطيط التربوي

الغزو الثقافي
و
تأثيراته التربوية

إشراف
د . عيسى شماس

إعداد
عبد المهيمن الديرشوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مقدمة

الثقافة هي الوعاء الذي يختزن طاقات المجتمع ، وتراثه وتوجهاته وتصوراته ، متضمناً الماضي والحاضر، وقاعدة الانطلاق نحو المستقبل. ومن ثم تشكل الثقافة مكوناً أساسياً وبعداً مركزياً في تحول المجتمعات نحو التقدم وتحقيق التنمية ، وإذ نتكلم عن الثقافة فإنما بمعناها الواسع والشامل كالإعلام وأشكاله والفنون وأنواعها وأنماط التفكير وأساليب التصرف والحياة والقيم والمثل والتعليم وأي كل ما يكوّن التراث والتكوين الفكريين والروحيين والنفسيين للشعب وسلوكه وتقاليده وطرائق حياته . وهذا كله يدخل ضمن ما يسمى بالشخصية الثقافية الوطنية أو (الهوية الثقافية) ولكل شعب متميز هوية ثقافية ذات أصالة ، ومثل هذه الهوية عامل أساسي من عوامل بقاء ومقاومة الشعوب العريقة في عالم التصادم والصراع والتحديات .

ولذلك حرصت المجتمعات على المحافظة على تراثها الثقافي ، وأصبح التدخل في الشؤون الثقافية لدولة ما أو مجتمع ما لا يقل خطورة عن التدخل في شؤون هذا المجتمع الاقتصادية أو السياسية ، بل ربما يكون أشد خطراً حيث أن اختراق البنية الثقافية يمثل المدخل إلى اختراق بقية البنى الاجتماعية والاقتصادية و السياسية ، فيصبح هذا المجتمع بعد ذلك فريسة سهلة لتبعية شاملة ، تضرب أطنابها شتى المجالات.

إن موضوع الغزو الثقافي موضوع قديم ولكنه يتجدد حيث اتساع الأخطار وتفاقمها مع دخول العالم عصر التقنيات الإعلامية الخاضعة لقبضة الدول المتقدمة صناعياً ولا سيما الولايات المتحدة .

الأمة هي في المركز الأول لاستراتيجية الغزو والتسلل والعدوان الثقافي الغربي عامة ولأمريكي بشكل خاص وذلك بسبب النفط والموقع الاستراتيجي والدور الموكول للكيان الصهيوني لإدامة التجزئة وتثبيتها ولمنع نهوض الأمة ووحدة أراضيها ومن أجل استمرار النهب لاستعماري وبأمل تحويل المنطقة إلى مستعمرة حلوب ودائمة .

وهكذا فإن صون التراث الثقافي بمختلف أشكاله يعد عملاً لدعم الذاتية الثقافية وإحباطاً لمساعي القوى الغربية ، وذلك شرط الانفتاح على الثقافات الأُخرى ، بشكل إيجابي من خلال المعرفة المتبادلة واحترام الثقافات المختلفة ، وتبادل الخيرات والعلوم والفنون والفلسفة والآداب وسواها وضرورة بذل الجهود في اللحاق بالعلوم والتكنولوجية والعمل للحصول عليها وتوطينها لتقوم بخدمة التنمية في جميع مجالاتها.

ولأهمية الموضوع وبتكليف من الدكتور المشرف قمت بإعداد هذا البحث المتضمن في الفصل الأول منه إيضاحاً لمفهوم الغزو الثقافي وبيان القصد منه ثم ولضرورة التمييز بينه وبين الغزو الثقافي أفردت هذا بفترة خاصة كي لا يكون التفاعل الثقافي عرضة للمغالطة وكذلك للتمييز بينه وبين الغزو الثقافي ثم تدرجت تاريخياً لعرض هذا الغزو من الحملات الصليبية إلى الوقت الحالي . أما الفصل الثاني فقد تضمن العوامل المؤدية للغزو الثقافي فكانت هذه العوامل منها ذاتية نابعة من داخل الأمة وأخرى خارجية يتحكم فيها أعداء هذه الأمة . وتضمن الفصل الثالث إيضاحاً للقنوات التي يستخدمها الغرب و الصهيونية الإفراز سمومه في ثقافة الأمة كالإعلام والتطبيع والتربية والتعليم .

أما الفصل الرابع فقد خصصته لبيان آثار الغزو الثقافي من النواحي الاجتماعية وعلى التراث واللغة والتربية والتعليم ومن ثم وضعت جملة من الأساليب والطرق الناجعة لمواجهة هذا الغزو ودرء أخطاره وذلك مع الفصل الخامس من هذا البحث.

مشكلة البحث:

تتعرض الأمة لغزو ثقافي مستهدف من الخارج متعمداً على أحدث التقنيات والوسائل المتطورة كالقنوات الفضائية ، والإنترنت.... ليؤثر في ثقافة هذه الأمة بمختلف شرائحها وطبقاتها وخاصة شبابها في قيمهم وأهدافهم وتاريخهم ومختلف نشاطات حياتهم اليومية ، من خلال التأثير في المصادر التي يتشرب منها الشباب ثقافة أمتهم .

تعمل الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية على إفراز سمومها في التربية والتعليم واللغة والتراث بتصديرها لمفاهيم مشوهة ومشكوك فيها ، إلى الثقافة مقابل تمجيدها للثقافة الغربية ونمط وأسلوب حياتها ، لتفقد ثقة أبناء المجتمع بثقافتهم فيلقون بأنظارهم نحو الغرب وثقافته فيقلدونها في جميع مظاهرها وأشكالها ، لتضمحل شيئاً فشيئاً الثقافات المحلية وتسود الثقافة الوافدة ، وما إن تم احتلال العقول والسيطرة على ثقافة أمة ما ستصبح السيطرة السياسية والعسكرية والاقتصادية من أيسر الأمور ، وهذه الأمور هي ما تهدف إليه القوى الغربية تجاه الأمة .

أهمية البحث :تأتي أهمية هذا البحث من :

١. أهمية ظاهرة {الغزو الثقافي } لكونها من أخطر المشكلات التي تتعرض لها الأمة ، في الوقت الذي ساء فيه استعمال وسائل الاتصال الحديثة والتقنية المتطورة لنقل المعلومة

٢. التركيز وبشكل أساسي على شريحة الشباب في الأمة تلك الشريحة الواعدة والتي لا يخفى ما لها من أهمية ودور كبير في مستقبل هذه الأمة . كما أنها مرحلة تتميز بسرعة التغير وتقبل كل ما هو جديد ، وقد فطن أعداء هذه الأمة إلى هذه الناحية لذلك أجمعوا يشون سمومهم إلى هذه الشريحة بشكل أساسي . من أجل كل هذا ركز البحث على الشباب وتأثيرات الغزو الثقافي عليه في بادئ الأمر لأنهم هم المستهدفون في هذه المعركة .

٣. التربية هي السبب الأساسي الداخلي للغزو الثقافي وبالتالي هي الحل .

فإن كانت هذه التربية سليمة وقائمة على أسس علمية وموضوعية ومنطلقة من حاجات هذا المجتمع وأهدافه وقيمه فسوف تصد جميع الأبواب في وجه الثقافة الغازية وستعمل على الاستفادة من ثقافات الشعوب على أساس التفاعل وليس على أساس من أن تُفرض عليها أي ثقافة كانت . ومن التركيز على أهمية التربية في كونها السبب في الغزو الثقافي وعندها العلاج وسبل المقاومة.

٤. كما تأتي أهمية البحث من وضع جملة من الوسائل والطرق الناجعة لمقاومة هذا الغزو الذي يستهدف ثقافتنا .

أهداف البحث :يهدف البحث إلى :

١- تبيان المقصود من الغزو الثقافي وتوضيح هذا المفهوم .

٢- إبراز العلاقة بين التفاعل الثقافي وتوضيحها لمنع حدوث أي خلط ومغالطة بينهما .

٣- إعطاء لمحة وسياق تاريخي للغزو الثقافي الذي تعرضت له الأمة منذ الحروب الصليبية وإلى الوقت الحاضر .

٤- توضيح القنوات التي يستخدمها الغرب ويسخرها لغزو هذه الأمة في ثقافتها .

٥- إظهار تأثيرات الغزو الثقافي ومظاهره المختلفة .

٦- إيجاد الطرق والسبل الناجعة لمواجهة الغزو الثقافي .

الأسئلة التي يجيب عنها البحث :

يسعى البحث إلى الإجابة عن الأسئلة التالية :

١-ما مفهوم الغزو الثقافي .

٢-كيف يفسر التفاعل الثقافي في ضوء الغزو الثقافي .

٣-ما المراحل التاريخية التي مرّ بها الغزو الثقافي.

٤-ما العوامل التي تؤدي إلى الغزو الثقافي .

٥ -ما هي القنوات التي تأتي عبرها الثقافة الغازية .

٦-ما تأثيرات الغزو الثقافي على التربية والتعليم واللغة والتراث والحياة الاجتماعية العامة .

٧-كيف يمكن موجهة الغزو الثقافي ، أو ما أنجع الطرق لمواجهة الغزو الثقافي .

مصطلحات البحث :

- الثقافة : (هي الكُلُ المُعَقَدْ الذي يشمل المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والعادات والتقاليد والقانون ، وكل القدرات التي يكتسبها الإنسان كعضو في جماعة.
- الغزو الثقافي : هو وسيلة من الوسائل التي تستخدمها الدول الكبرى لمحو الهوية الثقافية للدول الصغرى من أجل الوصول إلى الهدف من الاستعمار ، وهو تحقيق النفوذ السياسي والاستغلال الاقتصادي .
- التطبيع الثقافي : هو إقامة علاقات ثقافية طبيعية مع الكيان الصهيوني دون أن يغير هذا الكيان من إيديولوجيته و أهدافه الصهيونية من شيء.
- التفاعل الثقافي : الأخذ والعطاء بين الثقافات نتيجة الاتصال بينها لاستفادة إحداها من الأخرى مع محافظة كل ثقافة على هويتها واحتفاظها بشخصيتها .

مفهوم الغزو الثقافي

الغزو الثقافي : مصطلح سياسي ولد في أحضان الاستعمار الحديث بعد الحرب العالمية الثانية . ويرجع هـذا إلى أن الاستعمار الجديد يركز في أهدافه على الجانبين المهمين في حياة أبناء البلدان الخاضعة لنفوذه ، وهما : الجانب الاقتصادي والجانب الثقافي ، وذلك عن طريق استغلال الثروات بمختلف أنواعها لصالحه ، ومحو الهوية الثقافية لتحل محلها ثقافة ، وفي حدود ما يحقق له أهدافه من فصل المواطنين عن ثقافتهم وربطهم بثقافته لتتم له استمرارية الإخضاع فالنفوذ الشامل .

معنى الغزو الثقافي والمراد منه ، هو أن تقوم مجموعة سياسية أو اقتصادية بالهجوم على الأسس والمقومات الثقافية لأمة من الأمم بقصد تحقيق مآربها ووضع تلك الأمة في إسار تبعيتها . وفي سياق هذا الغزو تعمد المجموعة الغازية إلى أن تُحلّ في ذلك البلد وبالقسر ، معتقدات وثقافة جديدة مكان الثقافة والمعتقدات الوطنية لتلك الأمة .

يروم الغزو الثقافي أن يسلخ الجيل الجديد عن معتقداته بضروبها المختلفة . فهو من ناحية يهز قناعة هذا الجيل بمعتقداته ويقطعه من ناحية أخرى عن الاعتقاد بالأصول الثورية .

في عملية الغزو الثقافي يقوم الغزو بدفع ذلك الجزء من ثقافته الذي يرغب هو بدفعه إلى البلد الذي يروم غزوه ،ويغذي الأمة التي يستهدفها بما يريد ومعلوم ماذا يريد العدو وما الذي يرغب فيه) . إن الغزو الثقافي يكاد يكون أخطر الأسلحة الاستراتيجية والفتاكة في هذا العصر فإذا كانت الرصاصة تقتل رجلاً ، فإن الثقافة الغازية قد تقتل جيلاً بكامله وقد تفتت أمة بأسرها.

إن ما نعنيه بالغزو الثقافي هو في التلقي العشوائي والاستيراد الآلي في اتجاه واحد . إنه التأثير الدعائي المركز والمعتمد عبر الضخ اليومي لأطنان من المعلومات والإعلانات الفاسدة مع غرس وتعميم الطفرة الاستهلاكية ووضعها في رأس بيكار وتدويرها على مجمل الأمة بغرض اختراق العقل ، والوجدان وخلق استجابة فكرية ونمطية سلوكية تنأى بهم كأفراد وجماعات عن متابعة مشروعهم الحضاري والإنساني في بعث دولتهم الموحَّدة في وطنهم الكبير .

الغزو الثقافي هو ذلك الذي يطرق عقل الإنسان من أجل إعادة صياغة وعيه وتشكيل ذهنيته وقولبة شخصيته وشل دوره الحضاري والإنساني وسط خضم الأحداث العالمية .

إنه في الانبهار الأعمى بأضواء المادية الغربية وفي كتل ملتهبة من المثيرات التي تنصب على مخازن العواطف والغرائز للإنسان بغرض إلهائه وتغريبه عن وجوده ، وتفتيت هويته وإكسائه هويةً غير هويته وثوباً غير ثوبه). ومن هنا فالغزو: زحف الثقافة الاستعمارية على ثقافة أبناء البلد المغزو كما تزحف العساكر الاستعمارية لاحتلال البلد المغزو .

أما الثقافة فيراد بها ما يعطى لأبناء المجتمع ولكيانهم السياسي الهوية الخاصة المميزة لهم من سواها .

وبذلك فالهدف الاستعماري للغزو الثقافي يتمثل في محو الهوية الثقافية لمجتمع البلد المغزو ودولته وهم يتابعون وسائل الإعلام على اختلاف أنماطها وجنسياتها وفي مجالات التربية والتعليم وسواها. والغزو الثقافي لم يعد يتخذ شكل كتاب مليء بالدس يؤلفه مستشرق لئيم في جامعة غربية ، وإن كان هذا النوع من المستشرقين لم ينقرض بعد . والغزو الثقافي الخطر لم يعد يتخذ شكل مؤامرة استعمارية تستهدف تشكيل شعب ما في تاريخه وأخلاقه وديانته ، وإن كان الحديث لا ينقطع عن مؤامرات كهذه .إن أخطر ما في الغزو الثقافي المعاصر أنه أصبح ذا دفع ذاتي تلقائي ، يتم دون أي مجهود من الجهات الغازية ، ويتم دون أن يدرك ضحية الغزو أنه معرض لأي خطر ، فيقبل في حماسة بلهاء ، أو بله متحّمس ، لا على قبول الغزو فحسب بل على اعتناقه واحتضانه . هنا مكمن الخطر الأكبر .)

التفاعل الثقافي والغزو الثقافي

ويسمى التفاعل الثقافي أيضاً (التثاقف) ، أي تبادل الثقافة ، يراد به الأخذ والعطاء بين الثقافات ، ويأتي هذا نتيجة الاتصال بينها والتفاعل من أجل استفادة أحدهما من الُأخرى.

وللتبادل الثقافي حدود تفصله عن الغزو الثقافي وتميزه منه ، وهي محافظة كل ثقافة على هويتها واحتفاظها بشخصيتها ، فكل ثقافة تأخذ من الُأخرى وتتقبل عطاءها ولكن بمستوى لا يصل إلى حدود الحمى الذي لا يسمح بتجاوزه.

كل ثقافة بطبيعة الحال وبطبيعتها معرضة للانتهاك والاختراق حتى وإن كانت ثقافة أمة رائدة ، ذلك أن اختراق أية ثقافة لثقافة أخرى ليس يعني دائماً التأثير السلبي أو الضار أو المفسد لها فقد يكون إيجابياً وفاعلاً أيضاً ، ولا توجد ثقافة بمعزل عن التأثير بغيرها من الثقافات إيجابياً وسلبياً لأنَّ تحصين ثقافة الأمة بانغلاقها يعني تقوقعها بحيث تغزل نسيجها من ذاتها لذاتها فتغدو كالمياه الراكدة الآسنة

أي إنها تنبت بذور فنائها بذاتها لأن الثقافة الحية أو التي تريد أن تظل حية هي التي تظل متلاحقة مع كل الثقافات كيما تتجدد أنساغها بما يمكنها من مواكبة المرحلة التي هي فيها) .

فلا ضير من أخذ ثقافة الآخرين بشرط أن نملك حرية الاختيار، وتكون لنا القدرة على الهضم فنأخذ ما ينفعنا. أما الذي نرفضه ويجب أن نرفضه هو القسر والإجبار في تلقي ثقافة الآخر، وأن لا نتعامل مع ثقافة الغير وكأننا فاضون من أي شيء تماماً كالطبل الأجوف أو الورقة البيضاء .

الانفتاح على الثقافة الغربية في جوانبها النافعة فرض واجب على كل انسان لأن في اقتنائها واستلهامها وتطويرها حماية لهم. فالثقافة ما كان لها أن تصل إلى أوج ازدهارها لو لم تأخذ وتقتبس عن الثقافات الأُخرى .

والتفاعل مع الغير أتاح للعصور العباسية أن تكون عصور علم ومعرفة ، وأن الانغلاق على الذات داخل سياج العثمانية أنتج عصور الانحطاط ، و لم تكن دولة محمد علي ومسارات التحديث التي أرست قواعد هذه الدولة سوى ثمرة لهذه النظرة الإيجابية إلى الآخر ونتيجة ترتيب الأولويات في المسائل التي شغلت الفكر آنذاك .

ولكن ثمة أمر يجب التأكد عليه وهو لابد من أن يكون التفاعل مدروساً بعناية وجزءاً من خطة ثقافية

وتقدمية بعيدة المدى ترتبط بخطة إنمائية قومية و علمية وبمجمل أهداف نضالنا القومي وطموحنا الإنساني والحضاري المشروع ، وأن لا يخضع للارتجال أو الاعتبارات الظرفية العابرة أو شبه العابرة)

أخيراً ، بين الغزو والتفاعل الثقافي خطوط ينبغي أن تكون واضحة ، فالغزو فرض وقسر، والتفاعل اختيار . والغزو يفرض على الأمة لاستئصال ثقافتها ، والتفاعل ضرورة للتكامل.

الغزو الثقافي في سياقه التاريخي

ثقافتنا ومنذ القديم كانت وجهة سهام الغزاة جميعهم بغية تذويب الشخصية ومصادرة الانتماء ، وتجزئة البلاد وتفكيكها إلى عناصر قطرية ضيقة بشكل يسهل فيه على الغزاة ابتلاع الأرض وهضمها على مراحل ، واقتلاع الوجود ونسق الانتماء إليه من الجذور مع تغيير كافة ملامح ومعالم الشخصية والتراث. وإذا كان الاجتياح العسكري يهدف إلى الاستيلاء على الأرض والتراث فإن الاجتياح الثقافي يهدف إلى الاستيلاء على الروح والعقول ... وفي المحصلة اغتصاب الهوية، جنباً إلى جنب مع اغتصاب الأرض والأجساد. على أن الاجتياح الثقافي قد يسبق الاجتياح العسكري، كما قد يترافق معه أو يتأخر عنه بغرض استكمال أغراضه وتنظيف جيوبه.

ويمكن من خلال مراجعة التاريخ من إبراز الغزوات الثقافية التالية على الأمة:

١- الغزو الصليبي وحملة الفَرْنَسة للثقافة:

مع أن الحملات الصليبية ضمّت في صفوفها قطعان الغزاة من الأوربيين كافة، إلا أن الفرنسية كانت الصفة الغالبة فلقد ترافق الاحتلال الصليبي للأرض مع فَرْنَسةِ الثقافة بغرض قطع كافة الجذور التي تربط الأرض بأصحابها الشرعيين .

ويمكن الاستدلال بما ورد على لسان ملك فرنسا لويس التاسع عند ما تم تحريره من الأسر إثر هزيمته في معركة المنصورة عام ١٢٤٩ م. إذ قال كلمته الشهيرة:

(لقد تكسّرتِ الرماحُ والسيوفُ .... فلنبدأ حرب الكلمة). ومن الملفت للنظر في هذا السياق أن حملة نابليون العسكرية على مصر عام ١٧٩٨ م ضمّت بالإضافة إلى جيش المقاتلين الفرنسيين ، أيضاً جيشاً آخر من المثقفين والمختصين والباحثين في كافة مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والإنسانية مما عُرف باسم (إرسالية مصر) والتي كانت أولى حملات الغزو الثقافي المنظم للأمة في العصر الحديث .

٢- الغزو الاستعماري الأوربي :

لقد ترافق الاحتلال الأوربي مع احتلال ثقافي لكافة مرافق الحياة ، وما تزال ثقافتنا في دول المغرب العربي خصوصاً ، تعاني من تبعية ثقافية واضحة المعالم .

٣- الغزو الاستيطاني الصهيوني : وذلك عند زرع الكيان الصهيوني في قلب الأمة وإعلانها عام ١٩٤٨ بتخطيط من كبرى قوى العالم آنذاك لنكون شوكة في خاصرة هذه الأمة .

شهدت ثقافتنا هجمة ثقافية متعددة الجوانب من نوع جديد ، استهدفت هذه المرّة إيجاد غطاء شرعي لكيان يخالف كل شرعية عرفها التاريخ ، مع عملية تسويق وتمرير خرافات ومزاعم في ملكية هذه الأرض .

عوامل الغزو الثقافي

إن تعرض الأمة للغزو الثقافي ناتج عن عوامل عديدة بعضها عوامل خارجية نابعة من الغرب ذاته ، وأخرى داخلية ذاتية.

العوامل الخارجية للغزو الثقافي :

وتكمن العوامل الخارجية في تطلع الغرب عامة إلى السيطرة على منابع الثروات النفطية والمعدنية والاستفادة من السوق لتصريف منتجاته . بالإضافة إلى الأهمية الإستراتيجية الخاصة والمميزة لموقع هذه الأمة من العالم ، واحتوائه على مفاصل الاتصالات والمواصلات الدولية . كل ذلك يشكل أهم العوامل الخارجية للثقافات الغازية .

هذا وناهيك عن عوامل تاريخية ، وأحقاد دفينة مازال الغرب يأخذ بها للثأر من المشرق العربي.

كما أن النظام العالمي الجديد – بعد الحرب الباردة – أخذ بوجس خيفة من الثقافة الإسلامية وأخذ يتحداها تحدياً سافراً ومباشراً (تحت ذرائع مختلفة) ، الأمر الذي كثيراً ما يولد لدى أبناء هذه الثقافة ردود فعل مغالية تجنح إلى التقوقع والانكماش وإلى احتماء الذات بجلدها وإهابها التقليدي المألوف). وفوق هذا وذاك تؤدي العولمة إلى هجمة شرسة على الخصوصيات الذاتية للشعوب وعلى الشعب بموارده بشكل خاص.

العوامل الداخلية للغزو الثقافي:

هذه العوامل الداخلية، منها ما يتعلق بالإنسان ذاته ومنها ما يتعلق بالحكومات والوضع العام الذي يغذي تلك القوى . وأهم هذه العوامل هي :

١-الوضع المفكك ، والممزق إلى دويلات ، بشكل أصبح فيه كل طرف أكثر ارتباطاً بالجسم الأوروبي والأمريكي اكثر بكثير من ارتباطه بالجسد ذاته.

٢- الإنسان الذي أصبح حاملاً للكثير من الهموم والآلام ومن أهمها إقامة الكيان الصهيوني ونكسة ١٩٦٧ وحرب الخليج ... فاكتسب من جراء ذلك البرودة واللامبالاة ، وأصبحت ردود فعله إزاء الأحداث الجارية باهتة وهزيلة وانسحبت هذا الموقف العدمي على بقية تفاعلاته واهتماماته الاجتماعية والثقافية الأخرى .إن تشخيص الحالة النفسية الراهنة لرجل الشارع قد أغرت الغرب بثقافاته الغازية ، كما أغرت في الوقت نفسه تجار الإعلام والإعلان ودور النشر من العرب وفتحت أمامهم أبواب أرباح هائلة من المتاجرة بتسميم إنساننا عبر أطنان من السموم الإعلامية وكتب وقصص المغامرات العاطفية والبوليسية .

٣- الإعلام الذي يعاني بدوره من الضعف كما في الدول النامية عامة حيث تكاد صناعة الإعلام تقع بأكملها بيد وكالات الأنباء الغربية ، وتعتمد وسائل الإعلام اعتماداً شبه كامل على المواد الإعلامية الغربية (المعلبة).فهذا القصور الإعلامي جعل الإنسان فهماً للغزو الثقافي بكل مظاهره ، كما زعزع ثقة المواطن بأجهزته الإعلامية الوطنية فأصبح يتابع القنوات الأجنبية ليملك الفراغ لديه مثل SNN ومونتي كارول وصوت أمريكا وغيرها من المحطات التي جرفت الإنسان وتحاول غسل دماغه وإعادة تشكيل ذهنيته وتشكيل شخصيته ليصبح إنساناً آخر عديم الانتماء ، مبهوراً بكل ما هو آت من الغرب .

٤- حالة التخلف بجميع أنواعه وأشكاله ووجوهه. التخلف هو الذي يجعل حضارة ما مبهورة بحضارة أُخرى حريصة على تقليدها والإقتداء بها .والتخلف هو الذي يحَّول دولة ما إلى كيان ضعيف يمكن استعماره اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً وثقافياً .

وهذا ما فطنت إليه الصهاينة في بروتوكولات حكمائهم منذ أكثر من مائة عام فلننظر مثلاً إلى البروتوكول الثالث عشر الذي يقول الحاجة اليومية إلى الرغيف تلزم القوبم – أي غير اليهود- من أن يخلدوا إلى السكينة ويكونوا خدماً طائعين لنا وإننا سنعمل على صرف أذهانهم بوسائل المباهج والمسليات والألعاب واللهو وأشكال الرياضة ، ثم نجعل الصحف والمجلات توجه عقولهم إلى انتحال كل تافه من القصائد يرونه جديداً ومقبولاً .... أما رؤية الصحيح بجلاء ما خلقت إلا لنا – نحن شعب الله المختار) .

٥-(مشكلة الأُمية التي تعاني منها الأمة والمتمثلة في جيوش الُأميين التي تضمن بقاء المجتمع عرضه للغزو الثقافي. كما أن العاطلين عن العمل مهيئون فكرياً لقبول أي حل يعدهم بالخلاص بصرف النظر عن مصدر هذا الحل). وهذه البطالة هي من منتجات هذا التعليم الذي يُخَّرِجُ أجيالاً من الطلبة بِغَضِ النظر عن احتياجات المجتمع .

قنوات الغزو الثقافي

إن الأعداء المتربصين بالثقافة يسلكون في سبيل الوصول إلى غاياتهم وأهدافهم قنوات وأساليب شتى . وسأُبين فيما يلي أهم هذه القنوات وكيفية تعامل الغرب معها بغية الوصول إلى أهدافهم ، أستخلص التأثيرات التي من خلال هذه القنوات تصيب الثقافة والمجتمع عامة ، وأولى هذه القنوات

أ–وسائل الإعلام :

حدثت تطورات واسعة في استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصال على مستوى العالم وعلى المستوى الإقليمي الذي أخذ بقفزات هائلة في مجال اقتناء واستخدام الكمبيوتر والأقمار الصناعية في مجال الاتصال الفضائية وأخيراً استخدام الإنترنت .

ومن هنا فقد أصبحت وسائل الإعلام بمختلف أشكالها هي الوسائل التي استخدمها رواد الغزو الفكري والثقافي المعاصر لرمي أمتنا بوابل من السموم الفتاكة، ويمكن القول إن المواد الإعلامية والثقافية المزينة للاستهلاك والمجملة لنمط الحياة الغربي باتجاه البلدان النامية هي من أسوء ما ينتجه الغرب، الذي ينبغي من خلال إفساد الثقافة الوطنية وتهميشها وتسريب وإشاعة أنماط حياة تستهلك أكثر ما يمكن من البضائع والسلع ، وليس أدل على ذلك من المبالغ التي تنفقها الاحتكارات الرأسمالية وخصوصاً الأمريكية ، على الإعلان التجاري في الدول النامية . ففي الوقت الحاضر تعمل الرسالة الإعلامية الأمريكية على احتراق كل وسائل الاتصال الجماهيري ، ويحدث هذا الاختراق والتغلغل تغيرات أساسية في المحيط الثقافي إذ ينقل ويخلق مفاهيم ومواقف وقيم تتوافق مع متطلبات الإنتاج السلعي للشركات متعددة الجنسيات.

إذن ما نخشاه هو المسخ النظم والتدريجي للمواطن ليصبح عاشقاً ومقلداً لنموذج الحياة الأمريكية ومستسلماً له. كل ذلك لسلبهم وطمسهم وفرض الشعور بالغربة واقتلاع الأصول والجذور. لم يكن العالم الثالث مصدر طلقات التحذير والتخويف من خطر التهميش الذي تتعرض له ثقافاتها بل أوروبا وفرنسا على وجه التحديد تخاف الاختراق الأمريكي وتشكو منه وقد بدأ ذلك واضحاً في بيان لوزراء الثقافة في الاتحاد الأوروبي عام ١٩٨٨ محذرين من خطر التهميش الذي تتعرض له الثقافات الأوروبية في إطار عالم توحده ثقافياً الصور والرسائل الأمريكية التي تنشر عبر الأقمار الفضائية . فكيف سيكون حالنا ونحن لا نملك الوسائل ولا الأدوات التي تملكها أوربا.

وعموماً الإعلام في أمتنا ككل يعاني من مشكلات عدة أهمها :

١– صناعة الإعلام تكاد تقع بأكملها بيد وكالات الأنباء الغربية.

الكبرى (مثل : الاسوشيندبرس، واليونيتدبرس، ورويتر .حيث تقوم بتزويد معظم الصحف ومحطات الإذاعات والتلفزيون في البلدان النامية بالأخبار العالمية بعد تشويهها وإعادة إنتاجها وهي التي يتم الاعتماد عليها كمصادر أساسية ذات شهرة عالمية ومصداقية مزعومة

٢– إن معظم المواد والتجهيزات الصناعية الاتصالية الحديثة تقع في حوزة الدول المصنعة الكبرى وفي مقدمتها الولايات المتحدة .

وسأقوم هنا بعرض أكثر أشكال الإعلام انتشاراً وأهمية لنتبين الجوانب السلبية فيها وكيفية استخدامها من قبل الغرب في التأثير على الثقافة. وأهمها :

١– التلفزيون (القنوات الفضائية) :

أهم وسائل الاتصال الجماهيري وأشدها تأثيراً وأبلغها مقدرة على تأدية وظائف إعلامية وتثقيفية وترفيهية وتحريضية ، وقد زاد من تأثيرها استخدام البث التلفزيوني المباشر ، أي استخدام الأطباق الفضائية التي بواسطتها يمكن التقاط المئات من القنوات التلفزيونية .

وقد دخلت هذه الطباق معظم البيوت (تشير الوثيقة الخاصة بخطة اليونسكو إلى أن البرامج التي تبث عبر المحطات الفضائية قد تفلت من الرقابة، الأمر الذي سيؤدي إلى تعرض العالم لغزو مستديم وشامل من ثقافة إلكترونية آتية من فضاء بلا حدود، والذي تتمثل أبرز مشكلاته بتدفق المعلومات غير المنتقاة والترويج للأفكار الغربية وتعزيز الهيمنة والتبعية للدول المتقدمة وإحلال الثقافات الأجنبية محل الثقافات الوطنية على مستوى القواعد الجماهيرية ابتداءً من العادات والممارسات والسلوك اليومي إلى سلم القيم ونمط الحياة ، ويغرس مكانها روح التبعية الصامتة الخفية مما يغير شخصية تلك المجتمعات بإعادة صياغتها على نمط كوني معين .

إن التأثيرات التي تفرزها المحطات الفضائية لا تشكل بالنسبة للثقافة تحديات بالغة فحسب بل أخطاراً تمس الكيان العميق للأمة، إنها نوع من الهيمنة الثقافية الكاملة.

وعموماً يمكن تثبيت بعض الملامح العامة لنماذج مضامين المادة الإعلامية الأمريكية والغربية الموجهة عبر الأقمار الصناعية للدول النامية وخاصة فئة الشباب وهي:

١- الغلو في اللامنطقية وإلغاء العقل في فهم الأشياء والعلاقات والأحداث .

٢- تمجيد المغامرة الفردية والشعور بالعظمة الذاتية وقتل الإحساس بالجماعية .

٣- الترويج للعنف والوحشية والقتل والجنس كما في معظم أفلام الغرب التي تمتلئ بها دور السينما ومحطات التلفزيون .

حيث تؤكد العديد من الدراسات وبالأخص تلك التي تعدها اليونسكو على أن تلفزاتنا تستورد من الدول الأجنبية وبالأخص الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا ما بين ٤٠% و٦٠% من مجموع البرامج التي تتسم في غالبيتها بالجانب الترفيهي الذي تحركه خلفيات متعددو يهم منتج هذه البرامج أن يحقق بعضاً منها أوكلها ليحدث آثاراً ملموسة على المشاهد وهي آثار في غالبيتها سلبية خصوصاً على الشباب. أما برامج الأطفال فإن ٧٥-٨٠% هي من إنتاج أجنبي وهو ما يشكل خطراً جامحاً على تنشئة شباب المستقبل وقادته .

ومن خلال كل هذا تبين لنا أن حجم التأثير الثقافي الذي ستتركه برامج القنوات الفضائية سيكون عظيماً وفظيعاً في ظل غياب أي قدرة أو قوة أو إمكانية مناهضة من جانب المحطات الفضائية والتي قد ازداد عدد قنواتها في الآونة الأخيرة مما يسمح لها إن تنبت استراتيجية هادفة نحو الثقافة أن تلعب دوراً فاعلاً في حمايتها والعمل على تطويرها والتفاعل مع الثقافات الأخرى والاستفادة منها في وجه يخدمها لا أن تكون مقلدة لها بشكل أعمى .

٢- الإنترنت :

ظهر الإنترنت إلى الوجود في الستينات كشبكة اتصالات لوكالة مشروعات البحوث المتقدمة التابعة الإدارة الدفاع الأمريكية ، ومع مرور الوقت تطورت تلك الشبكة لما هو أبعد من مجرد خدمة المنشأة العسكرية .

أما اليوم فإن الإنترنت هي أكبر شبكة معلومات في العالم ويمتد نشاطها خلال العديد من الدول ، وتشير الإحصائيات إلى أن عدد مستخدمي شبكة الإنترنت حول العالم يزيد على (١٣٠) مليون مشترك ، في حين أن نصيب عالمنا لا يتجاوز مليوني مشترك .

ولشبكة الإنترنت محاسن ومساوئ ، فوائد وأضرار ، مثلها مثل أي منجز من منجزات العصر الصناعي فبقدر ما تبشر به من آمال وفرص وإمكانات فهي محفوفة بالمخاطر والتحديات والسلبيات. ومن ضمن المحاسن والفوائد لهذه الشبكة العالمية هو إتاحة وفرة المعلومات في شتى حقول العلم والمعرفة الكثيرة التي تقدمها الشبكة لمستخدميها كالبريد الإلكتروني والاتصالات الهاتفية ، والتسوق في المتاجر والأسواق والمعارض والمتاحف ، وغيرها من المحاسن الكثيرة .

أما عن مساوئ الشبكة والتي من خلالها قد تتعرض ثقافة ما للغزو والتأثير فتكمن في المواقع الإباحية الموجودة على الشبكة حيث الأفلام الخليعة والصور العارية وهذا ما يشكل خطراً على أخلاقيات الشباب والمراهقين من الجنسين على حد سواء .

كما أنه قد يمكن استخدام هذه الشبكة من قبل أعداء الأمة لترويج الأفكار المضللة والمشوهة للثقافة وهو ما يمكنه أن يؤدي إلى انحرافات فكرية لدى الناشئة والشباب ممن لا يملكون فكراً قومياً أو يفقدون الرؤية الفلسفية لأهداف وقيم الأمة . عن الإنترنت \تأثيرات إعلام هذا العصر .

خاصة وأن الشركات التي تتيح الدخول إلى شبكة الإنترنت هي كلها أمريكية، وهو ما يعني وجود سيطرة وتحكم وامتلاك ينفي ما ورد في كثير من المصادر والمقولات التي تؤكد على عدم وجود عنوان لهذه الشبكة أو مالك يديرها ، فتحكم الولايات المتحدة في الدخول إلى الشبكة يعني استخدامها كآلية هامة للغاية في إدارة وتوجيه العالم إلى طريق العولمة الأمريكية .

وقد كان دافيد هوب (أسقف يورك البريطاني) أطلق تحذيره من أن شبكة الإنترنت قد تصبح أداة للشر ، وأن سحر الكمبيوتر سيوجد مجتمعاً بلا روح ، وأضاف في تصريحاته إلى صحيفة التايمز البريطانية في منتصف إبريل (٢٠٠٠) أن تكنولوجيا الكمبيوتر والإنترنت يمكن أن تلتهم وتبدد قدرات الخلق والإبداع في الإنسان ، فحذر من أن هاتين الوسيلتين قد تساهمان مع غيرهما من وسائل العولمة في تبديد حياة الإنسان المتخلف وتسلب ما تبقى له من مقومات بقائه على قيد الحياة) .

ومن كل هذا فالمطلوب هو توظيف العلم والمعرفة في صالح الإبداع والابتكار والتقدم العلمي وتنمية القدرات العقلية، والقدرة على التعامل مع الكم الهائل من المعلومات بشكل علمي قائم على الاستنباط والاستنتاج والتحليل ، والاستفادة المثلى من الشبكة في الجوانب العلمية والثقافية وتوظيف الشبكة بما يخدم ثقافتنا وقيمنا ومواجهة المواقع التي تسعى لتشويه ثقافتنا بإيجاد مواقع توضح

لمستخدمي الشبكة الصورة المشرقة لثقافتنا وتراثنا، مع الاهتمام بالمضمون والمحتوى والاستفادة من التقنيات الحديثة في أسلوب العرض حتى تؤدي هذه المواقع رسالتها على خير وجه.

كما يجب العمل على تربية الناشئة تربية وقائية تحميهم من تلك الثقافات السخيفة التي تروجها الدول الغربية في سبيل جر شبابنا إلى مهاوي الرذيلة التي وقعوا فيها نستخلص من كل هذا أن وسائل الاتصال والإعلام هي الأداة الناقلة للثقافة من حيث أنها تساعد على دعم المواقف الثقافية والتأثير فيها وحفر الأنماط السلوكية وتعزيزها وطرح مفاهيمها على الجمهور من خلال البث والشرح المستفيضين .

ولا ينحصر دور وسائل الإعلام والاتصال في عملية النقل والنشر فحسب ، بل تحقق في تعاضدها مع الثقافة نوع من التكامل الاجتماعي ويجعلها تلعب دوراً أساسياً في بلورة الثقافة وإزالة ما لصق بها من بعض التشوهات التي حدثت في الماضي .

وأن تنتج برامج ومواد إعلامية مفيدة تربي الشباب على القيم وترسخ في نفوسهم الوطنية وحب الفداء والتضحية من أجل تراب الوطن وتنمي فيهم روح الإبداع والتطوير.

ولابد أن تقوم وسائل الإعلام على تثقيف المجتمع وتوعيته بماضيه وحاضره ومستقبله من خلال وضع برامج هادفة ذات مستوى راق من حيث الإعداد والإخراج والمضمون .

والأمة بكل أقطارها تشكل نمطاً متشابها من حيث القيم والعادات والتقاليد والتاريخ واللغة أي أنها تمثل نموذجاً فريداً يجعل من السهل عليها واليسير أن تقيم سياسة ثقافية وإعلامية تقيم بعض الحواجز ضد الاختراقات الإمبريالية الغربية والصهيونية التي تستهدف كيان الأمة وخصائص القيمَّة والثقافية ومحاولة طمس الهوية والذاكرة التاريخية لها، وتحصنها ولو جزئياً من أنماط وسلوكيات الحياة الغربية والأمريكية .

ولقد كانت وسائل الإعلام المتخلفة أداة ناجحة في يد الأعداء فتصيدوا بها رقاب الأبرياء ورموا بالأمة الواحدة في الفتن المتخلفة فوزعتها، وتدخلوا هم ليكونوا رسل سلام . وما هم إلا رسل فتنة وضلال يريدون أن يضعوا أيديهم على مقاليد الأمم ليسوقوها تحت أقدامهم . تارة باسم الإنسانية والإخاء والمساواة وتارة أُخرى باسم الاشتراكية والتقدمية .

ب- الجامعات الأمريكية في المنطقة :

إن لرواد الغزو الثقافي والفكري العديد من الطرق والقنوات التي يستخدمونها لبسط هيمنتهم وثقافتهم على الشعوب ونشر القيم والأفكار التي يبغونها لتكون مقدمة لسيطرتهم الاقتصادية والسياسية على هذه المجتمعات ، وقد كانت التربية والتعليم خير قناة لهم ، فجاءت أساليب تعاملهم مع التربية في المجتمعات بطرق وأساليب شتى من أهمها تلك الجامعات التي أحدثتها الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة والتي كانت لها تأثيرات ونوايا خفية كثيرة وسأذكر فيما يلي نموذجاً من هذه الجامعات هي (الجامعة الأمريكية في القاهرة).

لأوضح بذلك –رغم جوانبها الإيجابية – جوانب الغزو الثقافي التي تمارسها هذه الجامعات وتأثيراتها المختلفة .

تعد الجامعات التي أنشأتها الدول الغربية في كثير من بلدان العالم الثالث وضمت نظمها، وبرامجها ،لكي تكون امتداداً للجامعات الأوربية والأمريكية، أدوات رئيسية للتحديث الثقافي والتربوي، كما أنها بهذا المعنى، مثال بارز لمساعي الهيمنة الثقافية التي يفرضها الغرب على بقاع العالم المختلفة ، ومن ثم ، فهي أكثر أدوات التبعية الثقافية قوة وتأثيراً .

ولقد سعت مؤسسات التعليم العالي الأوربية والأمريكية المنشأة في بلدان العالم الثالث إلى تحقيق ثلاثة أهداف رئيسية هي:

١- خلق صفوة من الشرائح الاجتماعية العليا المهيمنة بما يخدم ويعمق حالة التبعية البنيوية التي تعيشها هذه الدول .

٢- إنتاج أيد عاملة مدربة على النمط الغربي – لتغطية حاجات القطاع لاستثماري الأجنبي .

٣- نشر القيم الاستهلاكية ، وأساليب الحياة والعادات التي من شأنها توسيع نطاق السوق الرأسمالي الغربي) .

تعد الجامعات الأمريكية في القاهرة بمثابة مركز إقليمي أمريكي يخدم مصالح الشركات الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط والمصالح السياسية والعسكرية للولايات المتحدة ، بالإضافة إلى الدور الهام الذي تقوم به في التدريب وفي مساندة الدعاية للولايات المتحدة وسياستها).

وهي تعمل بوصفها مركزاً لتوزيع المنتجات الثقافية الأمريكية في أوساط الطبقات الاجتماعية المهيمنة في مصر والبلدان العربية . لكنها في ذات الوقت تشارك في إنتاج عناصر ثقافية ذات طابع أمريكي تتعلق بالحياة المصرية والعربية .ويرى (إيف أود) أن خطوط الولايات المتحدة تتجمع في عدة محاور أساسية منها : تزيين صورة أمريكا، ومواجهة الدعاية المضادة لها ، وإبرازها كنموذج للديمقراطية، وكحماية لحقوق الإنسان، ومعاداة الشيوعية .ومن الواضح إذن أن الجامعة الأمريكية تخدم مصالح أمريكية أوسع من المصالح المعلنة ،والأمر الذي يؤكد أن ثمة صفحات مطوية وخافية تحتاج إلى كشفها وإماطة اللثام عنها . إن (كريستوفر تورن) وهو رئيس سابق للجامعة كان عميلاً في ذات الوقت للمخابرات المركزية الأمريكية (CIA) . كما كان (مالكوم كير) مدير الجامعة الأمريكية السابق ببيروت ، والذي عمل تحت لواء المخابرات الأمريكية خلال الستينات، على علاقة حميمة مع الجامعة الأمريكية في القاهرة من خلال برامج مشتركة بين الجامعتين الأمريكيتين في بيروت والقاهرة)

الدول الغربية لم تكن قط – من خلال النظر إلى التاريخ – تريد خيراً لمجتمعنا وشعبنا بل كانت دائماً تتربص بنا الدوائر ، فكيف لنا أن نتصور بإقامتهم هذه الجامعات وصرفهم لملايين الدولارات في سبيل تأمين نفقاتها أن ذلك كله في خدمة العرب وثقافتهم لذلك يجب أن نكون حذرين تماماً من غاياتهم وأهدافهم ونعمل دائماً على الاستفادة منهم ومن تقنياتهم ونظرياتهم حسب حاجاتنا وأهدافنا ونتجت كل ما يسيء لثقافتنا وقيمنا.

مظاهر الغزو الثقافي

- **الغزو الثقافي الاجتماعي :**

إن الأسرة هي الدعامة الأولى في المجتمع، وإن تفكيكها في المحصلة ينسف البناء الاجتماعي والقومي من الجذور.

ومن هنا يجب أن ننظر إلى تلك الحملة المركزة التي تشنها وسائط الإعلام الغربية بغرض تفتيت وتقويض الأسرة من خلال تروج المخدرات، وإفساد الأخلاق، وترويج الرذيلة والدعارة عبر ما يسمونه بـ (ممارسة الحريات الشخصية) في إباحية فاضحة تأنف عن مثلها البهائم، وخاصة بعد الانتشار الواسع للأقنية الفضائية، واستخدامها كقنوات لنشر رذائلهم من خلالها كما يفعل الصهاينة عبر قنواتهم الفضائية والتي يتم التقاطها في مختلف الدول وخاصة دول الجوار.

وفي هذا القطاع من الغزو الثقافي نجد انتشار الإعلانات التجارية ذات المسمّيات والتراكيب الأجنبية الغربية على الذوق مثل صالون مادونا، وحذاء لافي، وملمع الأحذية شولا، وعلكة لولا .....وسيلٌ من الإعلانات التجارية الفاسدة عبر مختلف وسائط الإعلام والتي تهدف إلى تحويل الإنسان إلى أداة استهلاكية للبضائع الأجنبية والثقافة الغربية مع الإشارة إلى أن عدداً غير قليل من المسميات التجارية الأجنبية ينحدر من تسميات يهودية توراتية مغرضة) .

وكذلك شيوع الملصقات التي تحمل صور مبتذلة لإبطال السينما التجارية التركية والهندية والأمريكية وطبع العلامات على الملابس والسيارات التي تحمل دلالات نفي الهوية، وتصميم الأشكال التي ترمز إلى ثقافة الأجنبي، وتحول ملابس الأطفال والشباب إلى لوحة إعلان، هي جميعها أمثلة بارزة للهجوم الثقافي الذي يهدف إلى قطع الشباب تدريجياً عن هويته وإفقاده عنصر الثقة بنفسه، وربطه ببهارج دينا الغرب الملونة حتى يتحول الغرب إلى قبلة آمال يترع إليها ويصبو لها. (إن إكساء الإنسان غطاء جديداً من العادات والتقاليد الغربية ، وإلهائه وإفساد ذوقه بكل ما هو جديد من عالم الموضة والأزياء والعطورات وضوضاء الموسيقى الغربية الصاخبة يشكل أحد أهداف الغزو الثقافي، وإن كان هذا الغزو يستهدف اجتياح طبقة المترفين من المجتمعات ، بشكل يتم فيه ربطها بالأزياء الغربية، واستخدامها الحديث المحشو بالكلمات الأجنبية – مثل بنجور ، مرسي ، وغود مورنينغ .... حتى المأكولات ، والمطاعم لم تسلم من الغزو الثقافي فيقال، مطعم ويك –ويك- المازا الإيطالية مع الرقص الغربي والجاز الأمريكي .... مطعم مكدونالد الفاخر –أطباق الهمبرغر والبيتزا على الطريقة الأمريكية، ناهيك عن ابتزاز الثروة الطائلة وتجفيفها لدى أولئك من المترفين ، إضافة إلى تجفيف وتفتيت حسِّها القومي والاجتماعي، بشكل يصبح فيه ذلك الإنسان شخصاً آخر فارغ المضمون مهووس بكل ما هو جديد من الغرب. إن تعميم الترف الأرستقراطي لدى أثرياء مجتمعاتنا أصبح يشكل أحد محاور الغزو الثقافي ، ففي الوقت الذي نجد آلاف العائلات تفترس الساحات والحدائق بل المقابر بغرض السكنى ،نجد في الوقت

ذاته فيها طبقة من الباشوات تصطحب كلابها معها إلى أوروبا بغرض إجراء عملية تجميلية لها أو استجمام ، ولها مقابرها الخاصة وأنديتها الخاصة .

(إن معدل سعر الفستان الباريسي المنشأ وصل في عروض صيف عام ١٩٩٢م في العاصمة الفرنسية باريس إلى ٢٦ ألف دولار أمريكي. وكانت معظم الشيكات المسجلة للاكتتاب المسبق على الأزياء الفرنسية بأسماء عربية. ودور الأزياء الباريسية حريصة جداً على كشف أكبر قدر ممكن من جسم المرأة دون أي احترام لمشاعرها الإنسانية. الشباب هو أكثر شرائح المجتمع تعرضاً واستجابة لمعطيات الغزو الثقافي ، مدبراً كان أو تلقائياً . وذلك نتيجة طبيعية لميل هذه الشريحة المهمة والكبيرة للجديد والمبهرج ، وهي صفات صحية لدى الشباب ، ولكنها بحاجة إلى توجيه وعناية حكيمة ورشيدة ومركزية ولا ريب في أن هذه العناية تتلخص في تنوير هذه الشريحة بإنجازات الثقافة منذ أقدم العصور ، وتعميق الوعي بها وبدورها في بناء الحضارة الإنسانية على كوكبنا فلابد إذن من محاربة هذا الغزو الثقافي الذي يسعى دائماً إلى تدمير نفوس شبابنا ، ومن البديهي أن قوانين جميع دولنا تمنع استيراد مواد غذائية فاسدة تضرُّ مَعِدَهم وأجسامهم . فكيف تسمح باستيراد الغذاء الفكري والثقافي الذي لا ينتج عنه إلا تخريب النفوس وإفساد العقول والمحطاط الأخلاق . هل بطون العرب أهم من عقولهم وأرواحهم .

–التربية والتعليم :

ميدان التربية والتعليم هو الميدان الذي يضمن للأمة مستقبلها إذا أحسن تخطيطه وتنظيم برامجه وتوجيه الناشئة فيه إلى ما يحقق سلامة فكرها من الدسائس التي يكيدها رواد الغزو الفكري الاستعماري الذي يهدفون لإنشاء ناشئة تدين بالولاء لما دسوه عليها من فكر دخيل يخدم مصالح الاستعمار ويفرق جموع الأمة المستهدفة بكيده ، ويرمي بها وسط متاهات تخدم مصالحه ومصالح أممه فيها ، فهي بذلك قناة يسلكها رواد الغزو الثقافي ليؤثروا من خلالها في أفكار المجتمع وثقافته ككل بتسريب سمومهم إليها ومن ثم التأثير في أفراد هذا المجتمع وخاصة طلابها وشبابها أي رواد هذه الأمة ليضمنوا بذلك سيطرتهم الاقتصادية والسياسية إن ضمنوا سيطرتهم الثقافية .

وبذلك فميدان التربية والتعليم هو الميدان الذي يقرر فيه مستقبل الأمة ومدى قدرتها على دفع كل تحد تتعدى به من جانب أعدائها. وليست مسألة التعليم هي مسألة إيجاد مرافق تعليمية وتوسيع ومضاعفة هذه المرافق وخدمتها ، وإنما يكمن الهدف الحقيقي في الخطة التعليمية التي تعتمد على البرنامج المحبوك لحفظ كيان الأمة بما يتفق وحاجاتها الفكرية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية. لكن بلادنا ونظمها التعليمية تعاني العديد من المشكلات التي تضمن غزوها ثقافياً وعن طريقها فجيوش الأُميين تضمن بقاء المجتمع متخلفاً ، وبالتالي تضمن بقاءه عُرضة للغزو الفكري والثقافي. والعاطلون عن العمل بعد تخرجهم مهيئون فكرياً لقبول أي حل يعدهم بالخلاص بصرف النظر عن مصدر هذا الحل. والطلاب الذين يشربون في مدارسهم حُب أمريكا أو روسيا سينمون وفي قلوبهم لأمريكا أو روسيا حب متمكن لا يزول مثال : فرنسا ومدارس لبنان الفرنسية .

وبما أن للتربية والتعليم الأهمية البالغة في التأثير على المجتمع فقد ارتأت الدول الاستعمارية ومنذ القديم لغزو هذا القطاع والسيطرة عليه وجعله قناة للسيطرة على عقول الشعب فمنذ القرن التاسع عشر قام الاستعمار الأوربي – الأمريكي بالتأثير على التعليم في الوطن بتحويله إلى تابع فالتعليم من الحضانة وحتى الجامعة حذا حذو الأنماط الغربية. وإضافة إلى ذلك فإن نماذج الفكر والثقافة وأساليب المعيشة والحياة والاستهلاك جرى نسخها عن أوربا ثم أمريكا.

إن رغبة دولنا في تقليد الدول المتقدمة يجعلها تتبع سياسة تعليمية ثنائية. فهي تحاول أن تحتفظ بمستوى علمي جيد ومماثل للدول المتقدمة. وفي نفس الوقت تدعو إلى سياسة تعليمية تواكب حاجة البلد، فجلبت دولنا المستشارين الأجانب من الدول الأوروبية وأمريكا لبناء جامعات مطابقة لأحدث الجامعات الغربية والأمريكية وكان لهذا العمل نتيجة تبعية مركبة. فمن جانب تقف التبعية الثقافية التي تجعل الكثير من المشرفين على التعليم لا يؤمنون إلا بالمناهج التي تدرس في الغرب، ولا يرضون بتعريب التعليم باعتباره يدهور المستوى العلمي. ومن جانب آخر ، تعمل الكوادر العربية التي درست في الجامعات العربية على أن تطبق وبشكل آلي نفس البرامج الموجودة في تلك الجامعات دون النظر إلى أهمية مؤسسات التعليم في إحداث التغيير اللازم والصحيح في المجتمع.

إن علينا أن نعي بأن مناهج التعليم في الدول المتقدمة قد تطورت عبر مراحل تاريخه طويلة وهي تلبي ، بدرجة أساسية، حاجة تلك المجتمعات، وان فلسفة التعليم فيها هي جزء من حركة هذه المجتمعات وتطورها.

لذلك فإن استنتاج المناهج الجامعية من الدول المتقدمة، أو بناء جامعات مصغرة و مشوهة عن جامعات الدول المتقدمة، إنما يعكس التخبط في أجهزة التخطيط للتعليم في الدول ويعكس روح التبعية الثقافية والعلمية للدول المتقدمة. إنه يوضح وبشكل كبير هيمنة

المركز على المحيط. إن دول المركز الغربية تفرض قيمها الثقافية ، وتسيطر على المعرفة والتكنولوجيا، وتحتكرها وهي بذلك تفرض الأنماط الثقافية المتولدة عنها . في الوقت الذي تراقب فيه عملية لاستيعاب لتلك الأنماط عن طريق السيطرة على نظم التربية والتكوين وبذلك فطالبنا يعرف عن تاريخ الغرب وحضارته وشخصياته وما إليها أكثر مما يعرف عن تاريخ أُمته أو تاريخ بلده، وربما كان القصور ما يمكن تداركه لكن الكارثة الحقيقية أن كثيراً من الحقائق قد شوهت تماماً وعرضت من وجهة النظر التي يريدها الغزاة حيث أعمدت المناهج التربوية لتغرس في عقولنا القيم التي تتفق ومصالح المستعمرين والغزاة ولستُ أنسى ما كنا نَلْقَنُهُ في السنوات الأولى من التعليم عن مصر من أنها هبة النيل وهي بلد زراعي لا يصلح للصناعة لعدم وجود الفحم والحديد ثم دارت الأيام وتبين عكس ذلك لأن الفكر الغازي كان يريد لنا أن نكون بلداً زراعياً نزرع له القطن الذي تنسجه مصانعه ثم يبقينا سوقاً لاستهلاك ما يصنع.

التربية والتعليم لا يزال يتمسك بمفهوم النظام التربوي الثابت، والبحث في معالم تربيتنا من أجل التغيير والتعبير أصبح ضرورة ملحة في غايته لأهميته، فالوطن يتعرض لخطر الغزو الثقافي لذا فإن الأنظار ترنو إلى التربية، لتتولى دراسة التراث وتحليله وتجديده من خلال ذاته ومن خلال تفاعله مع الثقافات العالمية وما يتطلبه الحاضر والمستقبل .كما أنه على مناهج التعليم وطرائقه أن العمل على تحليل الماضي تحليلاً موضوعياً، دون تقديس لأوضاعه الحياتية ونماذجها، ودون استخفاف بمنجزاتها في إطار ظروفه في عصوره. وفي الوقت ذاته ترى منجزات المعاصرة في إطار سياقاتها السياسية ولاجتماعية، دون انهار أو عقد. وإنما ما يحكم الموروث والوافد بالنسبة لواقعنا الراهن هو مدى ملاءمته وجدواه في تحريك الواقع تحريكاً يدفع إلى مزيد من التقدم والتنمية. وعلى نظام التعليم أن ينمي فكراً أصيلاً معاصراً،أو معاصراً أصيلاً، وشخصية عربية تعيش واقعها وعصرها، لا شخصية على النمط الغربي، وليست على نمط السلف الذي تكيف بظروف مغايرة لظروف واقعنا وعصرنا .

إن علينا أن لا نكون متفرجين في ظل الخضم المتسارع ، فإذا كانت موقفنا المتفرجة قد أفضت إلى استعمارنا من قبل الأجنبي الذي نهب خيراتنا وأهان كرامتنا ثم زرع متعمداً خلية سرطانية في قلب أرضنا و أمتنا، فإن في هذا العصر إن بقينا على سابق حالنا سيفضي إلى القضاء على وجودنا وكياننا وهويتنا الثقافية. ولا سبيل لنا في البقاء والحفاظ على قيمتنا وتراثنا وهويتنا إلا بالعلم.

الغزو الثقافي واللغة:

إن فناء الأمم والحضارات نادراً ما يكون بسبب الإبادة الجسدية عسكرياً وإنما يكون بسبب اختفاء لغتهم . اللغة هي الوسيلة التي يتم بها التخاطب والتفاعل بين البشر ، وهي بالنسبة للوطن تمثل الشيء الكثير فهي من أهم المقومات الأساسية للأمة وهي التي تجمعها من المحيط إلى الخليج، وقد شاء الله تعالى أن جعل القرآن الكريم بهذه اللغة مما حماها من الضياع، رغم أنها تتعرض لمختلف أنواع الغزو من أعدائها الذين يتربصون بها للنيل منها والقضاء عليها. ولا شك أن لساننا هو أبرز ما يميز مجتمعاتنا اليوم ، ويؤكد وجودهم في المجتمع الدولي نظراً لما يتميز به لساننا من قدرة تعبيرية وطاقة انفرادية، مكنته من استيعاب تراث العالم ومغالبة الاستعمار الثقافي ، ومواجهة التحديات الحضارية وما ابتدعته المدينة المعاصرة. ويحاول الاستعمار ومنذ القديم إلى اتخاذ العديد من الأساليب للقضاء على اللغة والحد من شأنها في مجال الفكر والعلم حيث أصبحت اللغة الاستعمارية هي لغة العلم والإدارة بالإضافة إلى تشجيعه للهجات المحلية .

فالطفل منذ نعومة أظافره ، يتعلم لغة فصيحة في المدرسة، ثم ما يلبث أن يستعمل خارج المدرسة لغة أُخرى في البيت والشارع، والصعوبة التي يجدها الطالب في لغته ستجعله يبتعد تدريجياً عن منابع ليقع في اللحن والخطاء ، ويميل إلى التعبير العامي ولاتجاه نحو الثقافة الغربية.

و إجمالاً فأهم مظاهر غزو اللغة تتجسد فيما يلي :

١. الدعوة للكتابة باللهجة المحلية (العامية) ، ويذهب البعض الآخر إلى المناداة بالكتابة بالعامية وبالحرف اللاتيني .
٢. التقليل من أهمية لساننا ، ومحاولة استبداله باللسان الإنكليزي، وباللسان الفرنسي.
٣. تحميل لغاتنا تبعات التخلف الحاصل في المجتمعات في المجالات العلمية والتكنولوجية ، مع أنه من المسَّلم به أن اللغة أداة للتعبير ووسيلة من وسائل التفكير وليست هي التفكير نفسه. ومن هنا على الأمة أن تعي أعداءها ونواياهم في طمس هذه اللغة التي هي سبيل وحدهم ، فاللغة الأُم هي اللبنة الأساسية لأي إبداع وأي تطور في أي مجتمع كان ، ولا يوجد أُمة على وجه الأرض أسس حضارة بغير لغتها الرسمية ، فكيف ولغتنا تعد من أغنى اللغات وأذخرها بالمفردات والتعابير القادرة على استيعاب جميع التطورات الحاصلة في مجال التكنولوجية والثورة الحاصلة في الآونة الأخيرة. حذراً من الغزو الثقافي لابد من إحكام المراقبة

على هذه اللغة بمنع استعمالها بالعامية واللهجات المحلية في المحافل والكتابات الرسمية ، والعمل على إثرائها دائماً لتفرض نفسها في التواصل والتعامل مع مستجدات العلوم والمعارف والتكنولوجيا المتطورة وبدقة عالية .

كما أنه لابد من العناية ولاهتمام بها بشكل كبير في المدارس وخاصة الابتدائية منها ليتشرب الأطفال هذه اللغة ومن منابعها الأصلية باهتمام بالغ .

الغزو الثقافي على التراث :

التراث يشكل أحد منابع الفكر المعاصر الذي ما تزال جذوره حية ممتدة متطورة في مجال الدين وللغة والتاريخ والثقافة والتشريع والأدب و لم ينقطع تفاعلها إلى الآن. يتعرض التراث ومنذ القديم إلى هجمات القوى المعادية تلك القوى الحاقدة التي تحاول النَيْلَ منه بتشويه معالمه وإحداث هذا التراث لتشويه الفكر ومستقبل الوطن، بإدخال مفاهيم منافية لقيم وأهداف هذه الأُمة فنعتوا التراث بالضعف والجمود وشككوا بكل ما حوته كتب التراث من قيم خصبة إنسانية نادرة . إن تراث أية أُمة يجب أن يوظف لخدمة أهداف هذه الأُمة في التحرر والإنعتاق فليس معنى إحياء التراث أو بالأحرى العودة إليه هو قبوله كما هو دون تمحيص وتدقيق ومعرفة الصالح منه والمدسوس ، وإنما يجب أن ترتبط قضية العودة إلى التراث بقضية بناء الثقافة ، ويجب أن تراعى فيها المتغيرات الراهنة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على المستوى العالمي.

التراث ليس الماضي المحنط الفاقد القدرة على التأثير في الحاضر ، والمعاصرة ليست القطع السكوني مع الماضي وإحداث فراغ ثقافي وحضاري معه . ودور قوى المواجهة الحقيقية يكمن في تحويل التراث إلى طاقة عصرية فاعلة في مواجهة الاستلاب الثقافي وتغريب الإنسان عن لغته وحضارته وتاريخه وهويته، وهي مواجهة لا يمكن أن تتم في الماضي لأنه لن يعود ، بل مع الحاضر والمستقبل وبأدوات الحاضر وثقافته والتخطيط للمستقبل وضروراته.

وتقدم اليابان نموذجاً للتفاعل بين الأصالة والمعاصرة ، حيث ظل اليابانيون متمسكون بشدة بالحفاظ على بلادهم من أي تغلغل أجنبي سواء كان فكرياً أم مادياً ، وكانت إحدى خصائص الثقافة اليابانية الاستفادة من الثقافات الأُخرى مع الاحتفاظ بالروح اليابانية ويفسر لنا كيف مزج المجتمع الياباني بين الأفكار الغربية والتقاليد اليابانية.

إن النظرة للتراث من وجهته نظرة عصرية ومن موقع الحاضر وتحدياته هي وحدها القادرة على إنقاذه من الجمود وإشراكه في بناء المستقبل. ولن يتم ذلك باستعادة التراث بكامله، الغث والسمين، بل بتأكيد الجانب الإيجابي فيه كمصدر أساسي في توكيد الهوية والتمايز الحاضري .

من هنا علينا أن نفهم كيف ينبغي أن نستخدم التراث الثقافي في خلق ثقافة جديدة حالية من المفاهيم البالية قادرة على ترجمة ما في الحاضر والتنبوء بما هو موجود في المستقبل.

مواجهة الغزو الثقافي

بعد أن تم توضيح مظاهر الغزو الثقافي وتأثيراته ، أصبح لزاماً توضيح سبل الموجهة درءاً للمخاطر التي ستحيق بالأمة من جراء هذا الغزو الذي أصبح حقيقة واقعة يمارسها أعداء هذه الأمة في يسل التأثير فيها وفي ثقافتها وبمختلف أوجهها ومظاهرها ، لذلك لا بد من حماية هذه الثقافة والعمل على مواجهة الغزو الثقافي الذي يتربص بها. ولا نبالغ إذا قلنا إن الاستكانة والتسليم أمر غير مقبول قطعياً ولا يجوز أن يسوّغ أبداً ، فمن واجب الأُمة ،أي أُمة أن تحمي ذاتها وتدرأ عنها الأخطار التي تهددها أياً كانت، ولا يجوز أن يكون ذلك بالانغلاق والتقوقع ، كما لا يكون بالانفتاح غير المشروط ولا المدروس ، لأن النتائج الناجمة عن ذلك ، وإن لم تهدد وجود الأمة ، فإنها جدٌ خطيرة على البنية الفكرية والثقافية والاجتماعية وقد تترك من الآثار السلبية ما يحتاج إلى عقود مديدة لمحوها أو تجاوزها). ثم أن علينا أن نتفاعل في إيجابية ناقدة ومتعلمة مع الحضارات الغربية ، فلا ندينها ، ولا نبهر بها انبهاراً كاملاً ، وإنما علينا أن نَتَقَصَّ الأساليب المجتمعة والجهود البشرية التي استثمرتها في إنجاز ما حققته من منجزات ، وأن نكتسب ونتعلم معارف ومناهج جديدة منها ، لا مجرد حلول جاهزة، وأن نستوعب هذه المعارف بصورة ناقدة وأن نعيد صياغتها في ضوء ما يتطلبه واقعنا ومجتمعنا ، وبهذا يصبح منهج تفاعلنا مع الحضارة الغربية من منطلق الحرية في تقرير المصير وليس قسراً أو فرضاً لثقافتها علينا .

كما أن من أوجه مقاومة ومواجهة الغزو الثقافي الاعتراف بقصور أنظمتنا الاجتماعية والثقافية ، والانطلاق من هذا القصور نفسه من أجل احتلال مواقع العالمية ، واختراق الهامشية ، وكسر آليات التبعية ، والمشاركة مع بقية الثقافات الإنسانية الحية والعاملة من أجل العمل على تعزيز إطار التعددية الثقافية في إطار الاحترام والتعاون والتفاعل المثري ، وإذا استبدَّ بنا هوس الدفاع والممانعة والمصارعة

نسينا أنفسنا ، وبقينا كما نحن ، سعداء بجهلنا وتخلفنا ، وإذا دوخَنا سِحر الثقافة المسيطرة ، ذبنا في غيرنا وفقدنا هويتنا . إن رفض الغزو الثقافي ، والوقوف في وجهه ، لا يكون باتخاذ المواقف البطولية والتشهير بالهيمنة الغربية، بل بالإسهام الفاعل في إنتاج ثقافة عالمية قوامها الجودة والإبداع الفني ومعالجة قضايا الإنسان وإملاء الفراغ الثقافي والدعوة إلى إحياء اللغة و إلى تعميمها بلغة سليمة ، فهي حاضنة ثقافتنا). وناقلة لتراثنا الذي يجب النظر إليه – أيضاً كوسيلة للدفاع عن ثقافتنا – من وجهة نظر عصرية ومن موقع الحاضر وتحدياته . هذه النظرة وحدها قادرة على إنقاذه من الجمود وإشراكه في بناء المستقبل. كما أن أي تحديث لا يتم من داخل التراث ومن خلال الانتظام فيه من أجل اتخاذه منطلقاً لتجديد ذلك التراث ، تحديث واهم ، ينقل منتجات الحضارة الحديثة ولا ينقل دفقة الإبداع الثاوية وراءها التي هي نتيجة الالتحام العضوي الوجداني بين الإنسان وثقافة أمته . وهذا ما تأتي الأحداث العالمية بعد الحرب الباردة لتؤكده .

كما أنه في سبيل مواجهة الغزو الثقافي لا بد من إعادة النظر في جميع مناهج التعليم بحيث نغلق جميع النوافذ التي تهب منها رياح الخطر ، والتي ينبغي أن يكون هدفها الأكبر إعداد المثقف ، وأن تفتح عيونه على الغزو الفكري والثقافي ومواطن الخطر كما أن التعليم العالي هو الوسيلة التي يتم عن طريقها تنفيذ سياسة مناسبة لمقاومة الغزو الثقافي. ولكي يقوم هذا التعليم بهذه المهمة على الوجه المطلوب لا بد أولاً من وضع فلسفة واضحة المعالم ومحددة الأهداف ، فلسفة تعكس خصائص الثقافة وطموحات العرب ، فلسفة تعمل على تهيئة فرد يتفانى في خدمة وطنه وقضيته ، فرد يشغف بالتسلح بالعلم ويفاخر بتاريخ أُمته وحضارتها ويعتز بلغتها. لكن ما يمكن ملاحظته أن التعليم بصورته الحالية لا يحقق المشاركة لإيجابية في تنمية المجتمع وخروجه من مرحلة التخلف التي هي أُم الغزو الثقافي فمن الضروري أن تبدأ الجامعات ببناء أفراد لهم رؤية نقدية إبداعية ، والطريق التي يريده لنا الغرب لا يوصلنا إلى الأمان، ولا يوفر لنا التقدم الذي نبتغيه. إن من الضروري أن نكون لجامعاتنا القدرة على الفعل الحضاري وأن نكون صرحاً ينتج المعرفة الإبداعية والابتعاد عن التقليد الأعمى للغرب والتقليد الأعمى للغرب والتقليد الرَّكود والتبعية فلنا حاجاتنا ويجب أن ننطلق منها لتحقيقها كما لابد من تخطيط إعلامي مستنير يضع الكلمة في حجمها التوجيهي الصحيح ويحمي العقول والمشاعر من التخدير والسموم التي يوجهها إلينا الغزاة، عبر الأطباق الفضائية والإنترنت مع تقديم البديل الإيجابي البَّناء وعبر الوسائل ذاتها وإنشاء متاحف للحضارة والثقافة والتعريف بالثقافة وبشؤون الفكر المعاصر وبالقضايا الحاضرة ، وتوحيد المصطلحات العلمية والحضارية والمساعدة في حركة التعريب ، وتبادل الخبرات الثقافية الخاصة بالصحافة ووسائل الإعلام والفنون الشعبية ....

وفي سبيل تحقيق كل هذا لابد العمل أولاً من أجل القضاء على التخلف الاقتصادي استكمالاً للاستقلال السياسي ، ذلك أن التخلف الاقتصادي هو الأساس الموضوعي الذي يرتكز عليه الغزو الثقافي لا بد بعد كل هذا من وضع بعض المعالم على الطريق الطويل المؤدي إلى التصور الكامل للصيغة الثقافية المرجوة :

١. (ليس من المقبول أن يكون هنالك نموذج ثقافي وحيد ، هو نموذج الثقافة الغربية وهذا ليس بالضرورة تقدماً إنسانياً مجهولاً من أجل الإنسان وسعادته وتحقيق ذاته على أكمل وجه .
٢. الحضارة العلمية التكنولوجية شرط لازم لتقدم الشعوب، وهي قدر الإنسانية ومستقبلها. وامتلاكها هدف لابد أن تسعى إليه الدول النامية . وكل ما في الأمر أنها مدعوة إلى السيطرة عليها ، لا إلى مجرد تلقّيها واستقبالها.
٣. التراث الثقافي شيء ثمين ، قيمته في أن نحره ونملأه بالديناميكية والحركة ، وفي أن نجعل منه حافزاً على بناء حاضر جديد ومستقبل جديد . والماضي في مفهومه السليم ليس كياناً من الحقائق الساكنة العاطلة، بل هو أولاً وقبل كل شيء جملة من الرموز والقيم المحركة ، ولا يغدو تخلفاً وجموداً إلا حين تفقد هذه الرموز معناها .

لذلك ندعوا إلى ثقافة جامعة – خاصة بالأُمة من خلال التفاعل بين تراثها الزاخر وبين البنية التحتية لهذه الأُمة وتجديد هذا التراث في ضوء حاجات المجتمع في هذا العصر والاستفادة من التقنيات الحديثة ونتاج الثقافات المتنوعة .

ثقافتنا هي ثقافة منيعة ، استمدت قوتها من تراثها وتاريخها الطويل الذاخر يصعب اختراقها . ولكن وسائل الاتصال الحديثة مخيفة جداً إن لم يتم حماية هذه الثقافة وتوعية المجتمع بحقيقة الغزو الثقافي وغايات أعداء هذه الأُمة وضرورة مواجهتهم ستكون مهددة بالاختراق والشروخ.

وقد شهدنا بدايات هذا الاختراق للثقافة مع التطور والتقدم الحاصل في تقنية الاتصال في الآونة الأخيرة ، وهذا ما لا يبشر بخير .لذلك لابد من وضع جميع النقاط السابقة الذكر في الحسبان والانطلاق منها لحماية هذه الثقافة التي قلَّما يجود التاريخ بمثلها .

خاتمة

نخلص فيما يلي أن الثقافة هي القاعدة الموضوعية لقيام أي مجتمع ، وأن الذي يستطيع أن يتغلغل إلى الثقافة يمكنه أن يحتل الوعي ، ويستطيع أن ينفذ إلى بقية الهياكل والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والعلمية .... والتحكم فيها من الداخل . لذلك كان الغزو الثقافي أخطر أشكال الغزو الذي يثير في النفوس مالا تثيره طلقات الرصاص ، إذ متى فقد المجتمع ثقافته ، وتراجعت قيمه الأصلية أمام القيم المستوردة ، فقدَ هذا المجتمع إحساسه بذاته وتميزه بل ووجوده المستقل ، وقبلَ كل ما يفرض عليه من أبنية خارجية ، بل إن الخلل الذي يصيب البناء الثقافي يؤدي بدوره إلى خلل في المجتمع كله .

إن الثقافة الباقية هي التي تجعل وجودها فوق كل التفضيلات ، وتوفق إلى فلسفة أودين أو نظام يحمي وجودها المستقل ، بل ويفسر هذا الوجود ، وعندما تواجه ثقافة بثقافة أُخرى تعجز عن منافستها فإنَّ أفضل ما تفعله ربما يكون هو الاحتماء (بقوقعة) وجودها الأصيل لتحمي نفسها من الذوبان في ثقافة أخرى ، ومن ثم فإن كيان المجتمع لا يمسكه عن السقوط إلا الانتماء لثقافة ذات قيم ثابتة ، تسميت لتحتفظ بوحدتها وتفرُدِها وتمايزها ، وليس أمام هذا المجتمع سوى الاعتصام بثقافته المحلية الأصلية .

ولا يعني ذلك التنكر للجديد تماماً باعتباره مطلباً من مطالب تحقيق التفاعل والدخول إلى حركة التاريخ والمعاصرة. لكِّن هذا الجديد لا يجب أن يقتلع كل شيء في حياة المجتمع ومكوناته من الجذور ، بل لا بد أن يكون هذا الجديد حاملاً للأصالة التي تضمن له الاستمرار والتواصل . كما أن دخول عناصر ثقافية جديدة لا ينفي إمكانية تعايشها بل هو إغناء للأصالة والتميز الخاص ، فليس هناك مجتمع يستطيع أن يستوعب الحضارة وإبداعاتها الجديدة في غيبة ثقافته المحلية الأصلية .

وفي ضوء ما تقدم يصبح الحفاظ على الهوية والخصوصية الحضارية للمجتمع هدفاً وقيمة ومصيراً ومستقبلاً ، وألا ندع الفرصة لأي هيمنة أن تنتقص منها أو تحتويها تحت أي مسمى من الأسماء الرنانة (التقدم – الحداثة – العولمة) فندرك أهمية الحفاظ على الثوابت وعلى رأسها اللغة والدين دون تعصب، ونحن نتفاعل مع المتغيرات المحيطة مستوعبين جميع مظاهر التقدم والتكنولوجيا الحديثة كي نكون فاعلين لا منفعلين فقط مع الثقافات الأُخرى .

والحمد لله رب العالمين

عبدالمهيمن الديرشوي

كلية التربية – جامعة دمشق